جمهورية مصر العربية	٤ من محرم ١٤٤٠هـ
وزارة الأوقاف	١٤ من سبتمبر ٢٠١٨م

(١)

حاجة الناس إلى الدين
وأثره في سعادتهم وضبط ميزان حياتهم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ..}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين ، **وبعـــد:**

فلا شك أن الإنسان متدين بفطرته ، قال الله تعالى: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ، وقد أرسل الله (عز وجل) الأنبياء والمرسلين بالآيات الواضحات ، والحجج الظاهرات ، وأنزل عليهم الشرائع التي تنظم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقته بالكون كله ؛ ليتحقق في الأرض الحق والعدل ، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}، وبيَّن الحق سبحانه وتعالى أن طريق السعادة للبشرية كلها في اتباع المنهج الذي جاء به الأنبياء والمرسلون ، وأن طريق الشقاء في مخالفة هذا المنهج ، فقال سبحانه: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}، وقال (عز وجل) :{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى*وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا}.

ولا شك أن الشرائع السماوية كلها قد خرجت من مشكاة واحدة ؛ ولهذا قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ) ، ولقد أتم الله (عز وجل) هذا البنيان وأكمل تلك الشرائع برسالة رسولنا الكريم (صلى الله عليه

وسلم) ؛ لذا يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ (صلى الله عليه وسلم): فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ).

ومن المعلوم أن المقاصد العليا للشرائع السماوية كلها عبر التاريخ الإنساني هي سعادة الإنسان ، فحيثما تكون مصلحة الإنسان فثمة شرع الله ؛ لأن الأحكام كلها تدور إما على درء المفاسد أو جلب المصالح ، أو عليهما معًا ، وبما أن الله (عز وجل) منزه عن المصالح والأغراض فالمصالح هي مصالح العباد ، ودرء المفاسد أيضًا عن العباد ، فكل ما يحقق صالح البشرية وسعادتها ، وعمارة الكون ، وبناء الحضارة ، ويدفع عن الناس الأذى هو من صميم مقاصد الأديان ، ومن يتدبر خطاب الله (عز وجل) لنبيه (صلى الله عليه وسلم) في أوائل سورة (طه) يدرك أن الإسلام لم يأت أبدًا لشقاء الناس ، بل الأديان جميعها لم تأت أبدًا لإتعاس الناس أو إشقائهم ، قال تعالى: {طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى} فكل ما يدعو إلى الهدم والتخريب والشقاء والتعاسة والحزن لا علاقه له بالأديان .

لقد جاءت الأديان السماوية بتشريعاتها ، وأحكامها وأوامرها ، داعية إلى الإصلاح والبناء والتنمية والتعمير ؛ تحقيقًا لقول الله تعالى على لسان نبيه صالح (عليه السلام): {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}، ولقوله سبحانه على لسان نبيه شعيب (عليه السلام): {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} ؛ لذا فقد أجمعت الشرائع السماوية على جملة كبيرة من القيم والمبادئ الإنسانية ، حتى وإن اختلفت في العبادات وطريقة أدائها وفق طبيعة الزمان والمكان ، قال تعالى :{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً

وَمِنْهَاجًا}، ومن أهم القيم والمبادئ الإنسانية التي أجمعت عليها الشرائع السماوية كلها : **حفظ النفس البشرية** ، قال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}.

ولهذا كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) حريصًا كل الحرص على إبقاء النفس البشرية ، والحفاظ عليها ، رجاء هدايتها وسعادتها في الدنيا والآخرة ، ولا أدل على ذلك من يوم الطائف الذي كان أشد الأيام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فلقد أتاه ملك الجبال قائلًا : (يَا مُحَمَّدُ إنَّ اللهَ قَدْ سَمِع قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأنا مَلَكُ الجِبال ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبِّي إلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ ، فَمَا شِئْتَ ، إنْ شئْتَ أطْبَقْتُ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ) ، فَقَالَ النبي (صلى الله عليه وسلم) : (بَلْ أَرْجُو أنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) حريصًا على حياتهم حتى وإن فقد الأمل في هدايتهم ؛ احترامًا لحرمة النفس البشرية ، ورجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا ؛ فتتحقق له السعادة في الدنيا والآخرة .

ومن أهم القيم والمبادئ الإنسانية التي أجمعت عليها الشرائع السماوية كلها: العدل ، والتسامح، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، والصدق في الأقوال والأفعال ، وبر الوالدين ، وحرمة مال اليتيم ، ومراعاة حق الجوار ، والكلمة الطيبة ، فالأخلاق والقيم الإنسانية التي تكون أساسًا للتعايش لم تختلف في أي شريعة من الشرائع ، يقول تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ

مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ، قال ابن عباس (رضي الله عنهما): هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وهى محرمات على بني آدم جميعًا ، وهن أم الكتاب – أي أصله وأساسه – ، من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار .

فليس هناك شريعة من الشرائع السماوية أباحت قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، أو أباحت عقوق الوالدين ، أو أكل السحت ، أو أكل مال اليتيم ، أو أكل حق العامل ، أو الأجير ، وليس هناك شريعة من الشرائع أباحت الكذب ، أو الغدر، أو الخيانة، أو خُلف العهد، أو مقابلة الحسنة بالسيئة، بل على العكس فإن جميع الشرائع السماوية قد اتفقت وأجمعت على هذه القيم الإنسانية السامية ، فمن خرج عليها فإنه لم يخرج على مقتضى الأديان فحسب ، وإنما خرج على مقتضى الإنسانية وانسلخ من آدميته ومن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها .

إن جوهر الأديان السماوية يجمع بين القيم والمثل الإنسانية التي تجسد الصورة المثلى للأخلاق الفاضلة في شموليتها لجميع جوانب الحياة ، فلم تترك فضيلة من الفضائل إلا دعت إليها ورغبت فيها ، وحثت على التمسك بها ؛ لتكون أساسًا للتعايش السلمي بين البشر جميعًا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) ، وكان من تعاليم سيدنا

عيسى (عليه السلام) لأتباعه (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر)، وجاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق التي جاءت بها الرسالات السابقة، فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ).

على أن الدين الذي يحقق السعادة للبشرية هو ذلكم النبع الرباني الصافي ، الذي يقوم على العمارة والحضارة ، لا على التخريب والهدم ، فالإسلام رحمة كله ، عدل كله ، سماحة كله ، فكل ما يؤدي إلى هذه المعاني العظيمة من مقاصد الإسلام، ومبادئ الأديان السماوية كافة ، وكل ما يؤدي إلى خلاف ذلك فيخرج بالناس من العدل إلى الظلم ، ومن الحق إلى الباطل ، ومن الرحمة إلى العنف ، ومن التيسير إلى التعسير ، فثمة خروجٌ على تعاليم الإسلام ، ومقاصد الأديان ، لا علاقة للإسلام ولا للأديان به ، فمن يستحل قتل الأبرياء ، وتخريب العمران ، ونهب الأموال ، واستباحة الأعراض فلا علاقة للأديان ولا الإنسانية السوية به.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام :

نحن في حاجة إلى فهم صحيح للدين ، وتطبيقٍ واعٍ لهذا الفهم الصحيح ؛ لضبط ميزان حياتنا ، وتحقيق سعادتنا في الدارين ، فإن جميع الأديان السماوية قائمة على عمارة الكون ، والعمل والإنتاج ، وعلى رعاية الحقوق والواجبات، كحق

الأسرة ، وحق الأبناء ، والأوطان ، وتحري الحلال ، إعمارًا للأرض ، وتحقيقًا للسعادة والتقدم ، ونفعًا للبشرية جمعاء ، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} ، وهو ما لو التزمنا به ، وفهمناه فهمًا صحيحًا ، وطبقناه تطبيقًا واعيًا لنلنا سعادة الدنيا والآخرة .

وعندما رأى أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) رجلاً قويًّا جلدًا نشيطًا خرج مبكرًا إلى العمل ، فأعجبوا بقوته ونشاطه قالوا ما أجمل هذه القوة ؟ ما أجمل هذا النشاط لو كان في سبيل الله ؟ فوضح لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) المفهوم الشامل لكلمة (في سبيل الله) لبيان قيمة العمل وأهميته وترغيب الإسلام فيه ، فعَنْ كَعْبِ بن عُجْرَةَ، قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رَجُلٌ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ) ، وما ذلك إلا لترسيخه (صلى الله عليه وسلم) لقضية العمل وقضية الإنتاج ، وقضية الإتقان ، فحيث تجد العمل والإتقان تجد سعادة الإنسان وتطبيق الأديان ، وحيث تجد البطالة والكسل والتخلف عن ركب الحضارة فاعلم أنه لا علاقه لذلك لا بالإسلام، ولا بالأديان في شيء .

وفي الختام نذكر بيوم من أيام الله (عز وجل) أعلا الله فيه كلمة الحق ونصر أهله ، وأزهق الله فيه الباطل وأهلك جنده ، ألا هو يوم عاشوراء ، فعندما قدم النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة وجد اليهود يعظمون هذا اليوم ويصومونه ، فسأل

(صلى الله عليه وسلم) عن سبب صيام هذا اليوم ، فَقَالَ: (مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَ؟) ، قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ: رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ)، قَالَ ابن عباس (رضي الله عنهما): فَصَامَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَمَرَ بِصَوْمِهِ.

وعن فضل صيام هذا اليوم، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ) ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما)، أَنَّهُ قَالَ: (مَا عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) كَانَ يَتَحَرَّى صِيَامَ يَوْمٍ يَبْتَغِي فَضْلَهُ عَلَى غَيْرِهِ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ ، أَوْ شَهْرَ رَمَضَانَ) ، ويستحب أن يُضم إلى صيام يوم العاشر صيام يوم التاسع ، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ) ، وأكمل صيامه صيام يوم قبله ويوم بعده، أي صيام التاسع والعاشر والحادي عشر من المحرم ؛ لقول ابن عباس (رضي الله عنهما): (صُومُوا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ خَالِفُوا فِيهِ الْيَهُودَ) .

على أنه مما ينبغي الإشارة إليه أن الصيام في شهر الله المحرم عمومًا من أفضل الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى الله (عز وجل) ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: سُئِلَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ؟ وَأَيُّ الصِّيَامِ أَفْضَلُ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ؟ فَقَالَ: (أَفْضَلُ الصَّلَاةِ، بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَأَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ، صِيَامُ شَهْرِ اللهِ الْمُحَرَّمِ) .

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك